الباب الخامس

اللامبالاة بالموعظة

قال تعالى: ﴿ قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ الْوَاعِظِينَ (١٣٦) إِنْ هَذَا إِلاَّ خُلُقُ الأَوَّلِينَ (١٣٧) وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴾ (الشعراء: ١٣٥-١٣٨).

الباب الخامس

اللامبالاة بالموعظة

ومن صور اللامبالاة تلك الصورة التي هي داء الأمم من قبلنا، ألا وهي اللامبالاة بالموعظة، والإعراض عنها، بل أصبح من يذكر الناس ويعظهم ويخوفهم من عذاب الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ وعقابه وسخطه مصدر سخرية، فهذا يسخر بمن يتكلم عن القبر وعذابه، وهذا يسخر بمن يخوف الناس من أثر الذنوب والمعاصي، بل إن بعضهم صار قلبه أقسى من الحجر يُقرأ عليه القرآن بوعده ووعيده وأمره ونهيه، فما يزيده ذلك إلا طغيانًا كبيرًا، وإصرارًا على ما هو عليه من الذنوب والمعاصي، فهؤلاء صورهم الباري ﷻ جَلَّ جلاله ـ بقوله: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ (البقرة: ٧٤).

أضحى حال كثير منهم كما قيل في المثل: «أذن من طين وأخرى من عجين»، فهذا يوعظ لترك الربا، ويخوف ويذكر فما يزيده ذلك إلا طغيانًا كبيرًا وهذا يشرب الدخان، فإذا وعظته انبرى قائلاً: «إن كانت حلال شربناها، وإن كانت حرام حرقناها»، وهذه متبرجة تذكر وتوعظ، فتدفع إلى من يذكرها هاتفها المحمول، وتقول بكل غرور: «احجز لي مقعدًا في النار»، وآخر يخوف من ترك الصلاة، فيقول: «ساعة الحساب تفرج»، وغيرهم كثير وأصبح حالهم كحال قوم هود عليه السلام، لما دعاهم إلى الإيمان بالله سبحانه وذكرهم بآلاء الله ونعمه عليهم، ثم أخبرهم أنه لا يرجو منهم مالاً ولا أجرًا، وإنما هو مشفق عليهم من سخط الله عليهم، ومن عذابه العظيم، فما كان رد هؤلاء إلا أن قالوا في تبجح ولا مبالاة: ﴿قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ الْوَاعِظِينَ (١٣٦) إِنْ هَذَا إِلاَّ خُلُقُ الأَوَّلِينَ

﴿١٣٧﴾ ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ (الشعراء: ١٣٥-١٣٦)، فلم ينفع فيهم الوعد ولا الوعيد، ولا الترغيب ولا الترهيب، وقالوا في صلف وغرور: ﴿إِنْ هَذَا إِلاَّ خُلُقُ الأَوَّلِينَ﴾.

يقول ابن كثير ـ رحمه الله ـ: يقول تعالى مخبراً عن جواب قوم هود له بعدما حذرهم وأنذرهم ورغبهم ورهبهم، وبين لهم الحق ووضحه: ﴿قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ الْوَاعِظِينَ﴾، أي: لا نرجع عما نحن فيه، ﴿وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ (هود: ٥٣)، وهكذا الأمر، فإن الله تعالى قال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لا يُؤْمِنُونَ﴾ (البقرة: ٦)، وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ﴾ (يونس: ٩٦)، الآية، وقولهم: ﴿إِنْ هَذَا إِلاَّ خُلُقُ الأَوَّلِينَ﴾، قرأ بعضهم: ﴿إِنْ هَذَا إِلاَّ خَلْقُ الأَوَّلِينَ﴾، بفتح الخاء، وتسكين اللام، قال ابن مسعود والعوفي عن عبد الله بن عباس وعلقمة ومجاهد: يعنون ما هذا الذي جئتنا به إلا أخلاق الأولين، كما قال المشركون من قريش: ﴿أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ﴾ (النحل: ٢٤)، وقال: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ﴾ (النحل: ٢٤)، وقال آخرون: ﴿إِنْ هَذَا إِلاَّ خُلُقُ الأَوَّلِينَ﴾، بضم الخاء واللام يعنون دينهم وما هم عليه من الأمر، هو دين الأولين من الآباء والأجداد ونحن تابعون لهم سالكون وراءهم نعيش كما عاشوا، ونموت كما ماتوا، ولا بعث ولا ميعاد، ولهذا قالوا: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾[1].

فماذا كان جزاء هذا الصلف وذاك الغرور: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ (الشعراء: ١٣٩-١٤٠)، وانظر إلى عاقبة أمرهم كيف كانت: ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴿٦﴾ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴿٧﴾ فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنْ بَاقِيَةٍ﴾ (الحاقة: ٦-٨).

---

(١) «تفسير ابن كثير» (جـ٣) ـ (ص٣٤٢).

وهكذا تكون نهاية أهل اللامبالاة بالموعظة أن يدمرهم الله تعالى، فما تعاني منه الأمة من ضعف وهوان، وذل وصغار، إنما هو نتيجة حتمية لبعدهم عن المواعظ التي قصها الله عليهم في كتابه، فالله قص علينا قصة قارون الذي تكبر وتجبر وظن بغروره أنه صاحب الأمر والنهي، ولم يلتفت لموعظة الواعظين له، وزجرهم إياه عن التمادي في كبره، ولكنه أصم وعمي، فخسف الله به وبداره الأرض، وما زالت تلك النعرة القارونية تُعمي أصحاب الأموال في هذه الأيام، ولم يأخذوا العبرة والعظة من أسلافهم، وكذا أرباب المعاصي بأنواعها، وما علم هؤلاء أن الله يملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته، وإلى هؤلاء الذين لم يبالوا بالموعظة بيان معنى الموعظة، لعل ذلك يوقظ الغافل والمتغافل، وينبه الغافل الوسنان، ويأخذ بأيدي الحيارى الذين ضلوا الطريق وإلى هؤلاء ومن على شاكلتهم هذا البيان من كتاب الرحمن والله المستعان، يقول الله ـ سبحانه وتعالى ـ: ﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ (النحل: ١٢٥).

يقول ابن القيم ـ رحمه الله ـ: والعظة يراد بها أمران، الأمر والنهي المقرونان بالرغبة والرهبة، فالمنيب شديد الحاجة إلى الأمر والنهي، والمعرض شديد الحاجة إلى الترغيب والترهيب، والمعارض المنكر شديد الحاجة إلى المجادلة.

* والعظة نوعان: عظة بالمسموع، وعظة بالمشهود:

فالعظة بالمسموع .. الانتفاع بما يسمعه من الهدى والرشد والنصائح التي جاءت على لسان الرسل، وما أوحي إليهم، وكذلك الانتفاع بالعظة من كل ناصح ومرشد في مصالح الدين والدنيا.

والعظة بالمشهود .. الانتفاع بما يراه ويشهده في العالم من مواقع العبر وأحكام القدر ومجاريه، وما يشاهد من آيات الله الدالة على صدق الرسل[1].

---

(١) «مدارج السالكين» (جـ١) ـ (ص٤٧٨-٤٧٩).

القسم الأول - الموعظة بالمسموع:

وهي الموعظة بالقرآن، الذي أنزله الله تعالى على نبيه، وبيَّن فيه سبحانه أنه موعظة للقلوب وشفاء لما في الصدور، قال - سبحانه وتعالى -: ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ** ﴾ (يونس: ٥٧)، وهيا لترى أثره على القلوب والجلود، يقول سبحانه: ﴿ **اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ذَٰلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ** ﴾ (الزمر: ٢٢).

يا من لا تبالي بالموعظة، أين أثر القرآن على قلبك وجلدك؟، بل أين أثره على سمعك وبصرك؟، فهل أنت من أولياء الرحمن، أم صرت من جنود الشيطان؟.

قال قتادة: هذا نعت الله لأوليائه نعتهم بأنهم تقشعر منه جلودهم، وتجل منه قلوبهم، وتبكي منه أعينهم، ثم تطمئن قلوبهم إلى ذكر الله، فأهل الإيمان الصادق وأهل العقيدة الثابتة الراسخة، إذا تليت عليهم آيات الله اقشعرت جلودهم، وانقبضت قلوبهم، وارتعدت فرائصهم، فسكن الخوف والوجل قلوبهم، وإذا تليت عليهم آيات الرحمة، وآيات المغفرة، انبسطت جلودهم، وانشرحت صدورهم، واطمأنت قلوبهم، وهيا لندخل على أولياء الرحمن لنرى أثر الموعظة من القرآن، وكيف أن الموعظة وقعت من قلوبهم بمكان؟:

١ - *رسول الله محمد ﷺ*: أخرج البخاري عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «اقرأ علي»، فقلت: «**اقرأ عليك وعليك أنزل؟**»، فقال: «إني أحب أن أسمعه من غيري»، قال: فقرأت سورة النساء حتى بلغت: ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا ﴾ (النساء: ٤١)، قال: «حسبك»، فالتفتُّ فإذا عيناه تذرفان.

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قلت لعائشة رضي الله عنها: «أخبرينا بأعجب ما رأيته من رسول الله ﷺ»، فبكت وقالت: «كل أمره كان عجبًا، أتاني في ليلة حتى مس جلده جلدي، ثم قال: ذريني أتعبد لربي - عزَّ وجلَّ -. قلت: والله إني لأحب قربك، وإني أحب أن تعبد ربك، فقام إلى القربة، فتوضأ، ولم يكثر صب الماء، ثم قام يصلي فبكى، حتى بل لحيته، ثم سجد فبكى، حتى بل الأرض ثم اضطجع على جنبه، فبكى حتى إذا أتى بلال يؤذنه بصلاة الصبح»، قالت: فقال: «ما يبكيك وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟»، فقال: «ويحك يا بلال، وما يمنعني أن أبكي، وقد أنزل الله عليَّ آيات في هذه الليلة: ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُوْلِي الأَلْبَابِ ﴾ (آل عمران: ١٩٠)»، ثم قال: «ويل لمن يقرأها ولم يتفكر فيها»[١].

- قيل للأوزاعي: ما غاية التفكر فيهن؟، قال: أن يقرأهن وهو يعقلهن.

فهذا أثر القرآن على سيد ولد عدنان، فأين أثره عليك أيها الإنسان؟، أين أثر الدموع؟، بل أين علامات الخشوع، أم دبت إليك آثار اللامبالاة، فلم يعد يحرك فيك الوعد ولا الوعيد؟.

* وها هي ثلة مباركة لعلك تتشبه بهم في خوفهم من ربهم:

٢ - *عمر بن الخطاب* رضي الله عنه: سمع رضي الله عنه رجل يتهجد في الليل، ويقرأ: ﴿ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ ۝ مَا لَهُ مِن دَافِعٍ ﴾ (الطور: ٧-٨)، قال عمر: قسم «ورب الكعبة حق»، ثم رجع إلى منزله فمرض شهر يعوده الناس، لا يدرون ما مرضه.

٣ - *عبد الله بن عمر* رضي الله عنه: عن سمير الرياحي، عن أبيه قال: شرب عبد الله بن عمر ماءًا مبردًا، فبكى، فاشتد بكاؤه، فقيل له: «ما يبكيك؟»، فقال: «آية في كتاب الله - عزَّ وجلَّ -: ﴿ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ ﴾ (سبأ: ٥٤)، فعرفت أن أهل

---

(١) رواه ابن أبي حاتم، وابن حبان في صحيحه، وعبد بن حميد، وابن أبي الدنيا، وأخرجه البخاري في صحيحه عن ابن عباس.

النار لا يشتهون شيئًا، شهوتهم الماء، وقد قال الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ: ﴿ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ ﴾ (الأعراف: ٥٠)».

٤ ـ تميم الداري رضي الله عنه: عن مسروق: قال لي رجل من أهل مكة: هذا مقام أخيك تميم الداري، صلى الليلة حتى أصبح، أو قرب أن يصبح يقرأ آية ويرددها ويبكي: ﴿ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ (الجاثية: ٢١).

وعن صفوان بن سليم قال: قام تميم الداري في المسجد بعد أن صلى العشاء، فمر بهذه الآية: ﴿ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ ﴾ (المؤمنون: ١٠٤)، فما خرج منها حتى سمع أذان الصبح[1].

٥ ـ محمد بن المنكدر ـ رحمه الله ـ: بينما هو ذات ليلة قائمًا يصلي، إذ استبكى فكثر بكاؤه، حتى فزع أهله، فسألوه: «ما الذي أبكاك؟»، فاستعجم عليهم، فتمادى في البكاء، فأرسلوا إلى أبي حازم وأخبروه بأمره، فجاء أبو حازم إليه، فإذا هو يبكي، فقال: «يا أخي ما الذي ابكاك؟، قد رعت اهلك»، فقال: «إني مرت بي آية من كتاب الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ»، قال: «ما هي؟»، قال: ﴿ وَبَدَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ ﴾ (الزمر: ٤٧)، قال: فبكى أبو حازم معه، واشتد بكاؤهم، قال: فقال لهم بعض أهله لأبي حازم: «جئنا بك لتفرج عنه فزدته»، قال: فأخبرهم ما الذي أبكاهما[2].

٦ ـ علي بن الفضيل بن عياض ـ رحمه الله ـ: مات رضي الله عنه من سماع آية وهي: ﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (الأنعام: ٢٧)، لله درك من سيد، بلغت من رقة القلب حتى تموت من جراء سماع أو قراءة آية، وبالله ما أحلاه من نعت يطلقه عليك الفضيل «قتيل القرآن».

---

(١) «صفة الصفوة» (جـ١) ـ (ص٢٤٣).
(٢) «صفة الصفوة» (جـ١) ـ (ص٣١٩).

وهكذا بلغت الموعظة من القلوب مبلغها، حتى بدى ذلك على جلودهم وقلوبهم، وعيونهم، فما لقلبك تحجر حتى صار أقسى من الحجر؟.

فما لك ليس ينفع وعظ ... كأنك قد خلقت من الجماد

أترضى أن تكون رفيق قوم ... لهم زاد وأنت بغير زاد

فما الذي غرك بربك الكريم؟، وما الذي جرئك على مولاك العظيم؟، أنسيت نفسك؟ أغفلت ضعفك؟، أما تذكر ربك؟.

قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ (٦) الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ (٧) فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ ﴾ (الانفطار: ٦-٨).

عطاياه إليك نازلة .. وخطاياك إليه صاعدة!

يتحبب إليك بنعمه .. وتتبغض إليه بمعاصيك!

يمهلك فتغفل .. يحلم عليك فتجهل .. يلطف بك فتستكبر!

يناديك إلى التوبة فتتمادى .. يحذرك من العقوبة فتتمرد!

يدعوك إلى رحمته فتعرض!

ألم تسمع إلى عتاب ربك إليك، وهو يعتب عليك عدم الاعتبار والاتعاظ، أدبَّ إليك داء الأمم السالفة، أم أنه يعظ غيرك؟.

يقول علام الغيوب: ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴾ (الحديد: ١٦).

أما آن لك يا من وعظت بعدم ترك الصلاة أن تصلي؟!.

آما آن لك يا من وعظت بترك الربا ألا تربو؟!.

أما آن لك يا من وعظت بالحجاب والاحتجاب ألا تتبرجي؟!.

أما آن لك يا من فرطت في جنب الله أن تسارع إلى رضوانه؟!.

أما آن لك يا من وُعظت بترك الدخان أن تسارع إلى تركه؟!.

أما آن .. أما آن .. أما آن؟!.

ذكرت القيامة رأي العين، فشاهدت أمورًا تذهل كل مرضعة عما أرضعت، وتضع كل ذات حمل حملها، وترى الناس سكارى، وما هم بسكارى، ولكن عذاب الله شديد.

وما زلت سادرًا[1] في غيك، رأيت الشمس كورت، والنجوم انكدرت، والجبال سيرت، والعشار عُطلت، والأرض دكت، وما حرك ذلك فيك ساكنًا.

وعظت بالجنة ونعيمها، وما أعد الله لأهلها من قصور من ذهب، بانيها الرحمن، وخازنها رضوان، المسك طينتها، والزعفران حشيش نابت فيها، الوجوه ناضرة، وإلى الرحمن ناظرة، وعظمت بكل هذا، وما شمرت له عن ساعد الجد، فيا عجبًا للجنة، كيف ينام طالبها . . فالباب مفتوح، ولكن من يلج؟!، والحبل ممدود ولكن من يتشبث، والخير مبذول ولكن من يتعرض؟.

ثم وعظت بالنار، وما أعد فيها من أغلال، فحرها شديد، وقعرها بعيد، وسلاسلها من حديد، وطعامهم الزقوم، وشرابهم الصديد، فيا عجبًا لك يا ابن آدم، كيف لا تهرب؟، ويا عجبًا لك كيف تنام؟، ويا عجبًا لك كيف تعصي وتلهو؟.

ثم ذكرك ربك بآثار الأمم، وما أصابهم من عذاب، وما حل بهم من نكال، فقال: ﴿وَذَكِّرْهُم بِأَيَّامِ اللَّهِ﴾ (إبراهيم: ٥)، وقال: ﴿وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّنَ الْأَنبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ۝٤ حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ﴾ (القمر: ٤-٥)، ثم قال في آخرها: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ۝٥١ وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ ۝٥٢ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ﴾ (القمر: ٥١-٥٣).

أما قرأت في ثناياها ما حل بقوم نوح؟، وما عاد على قوم عاد؟، وكيف كانت عاقبة ثمود؟، وما نزل بقوم لوط؟، وما حاق بقوم فرعون؟، أما تخاف من العقاب؟، أما قرأت قول الديان: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ﴾ (الفجر: ١٤).

---

(١) سدرفلان: أي: ذهب فلم يثنه شيء، «المعجم الوسيط» (جـ١) ـ (ص٤٣٩).

أم حل عليك النكال، فأعمى الله بصرك وأصم سمعك، وطبع على قلبك، يا ذا القلب القاسي، والعقل الناسي، أين المفر إذا نشرك وحشرك؟، أين المفر إذا استدعاك للحساب؟، فأين يكون المستقر؟، أفي جنة عالية، قطوفها دانية . . فنهنيك؟، أم في نار حامية . . فنعزيك؟.

مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين في دار الأبرار؟، أم في دار سكانها الكفار والفجار والأشرار؟، أفي دار الخيبة والخسارة والبوار؟.

غداً توفى الأنفس ما كسبت ... ويحصد الزارعون ما زرعوا

إن أحسنوا أحسنوا لأنفسهم ... وإن أساءوا فبئس ما صنعوا

يقول ابن الجوزي: الواجب على العاقل أن يحذر من مغبة المعاصي، فإن نارها تحت الرماد، وربما تأخرت العقوبة ثم فجأت، وربما جاءت مستعجلة فليبادر بإطفاء ما أوقد من نيران الذنوب، ولا ماء يطفئ تلك النار، إلا ما كانت من العين لعل خصم الجزاء يرضى قبل أن يبت الحاكم في حكمه[1]. اهـ.

القسم الثاني - الموعظة بالمشهود:

إليك يا من لا تبالي بالموعظة حالك: ﴿ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ الْوَاعِظِينَ﴾ إليك . . لعلك ترجع، ولعلك تخضع، ولعلك تتوب وترجع إلى علام الغيوب، إليك الموعظة بالمشهود بما تراه عيناك بما تشاهده من أحوال الناس:

يقول عمر بن عبد العزيز - رحمه الله -: ألا ترون أنكم تُجهزن كل يوم غاديًا، أو رائحًا إلى الله - عَزَّ وَجَلَّ - تضعونه في صدع من الأرض قد توسد التراب، وخلف الأحباب وقطع الأسباب.

---

(١) «صيد الخاطر» (٣٣٩).

ما عسى أن يكون بقاء من له يوم لا يعدوه وطالب حثيث يحدوه في الدنيا، حتى يفارقها، ألم تروا إلى الماضين منكم لا يرجعون، وإلى الخلق الباقي منكم لا يبقون، أولستم ترون أهل الدنيا يصبحون ويمسون على أحوال شتى، فميت معزى وآخر يعزي، وعائد يعود وآخر بنفسه يجود، وطالب للدنيا والموت يطلبه، وغافل وليس بمغفول عنه، وعلى أثر الماضي يمضي الباقي، ألا تذكروا هادم اللذات، ومنغص الشهوات، وقاطع الأمنيات.

الموعظة بالموت ومشاهدة المحتضرين

الموت هادم اللذات، ومفرق الجماعات، ومكدر الشهوات، مسكت النجي، مفرق الندى، معفي الآثار، مخرب الأديار، زائر غير محبوب، وواتر غير مطلوب، عظمت سطوته، وتتابعت عدوته، وقلت عنا نبوته.

أيها السادرون المخمورون الغافلون، أيها اللاهون المتكاثرون بالأموال والأولاد، وأعراض الحياة، وأنتم مفارقون، يا من ضلوا في متاهة الأمل والغرور، تنبهوا أفيقوا واذكروا الموت.

يقهر الموت المستعلون بالعقيدة، ويموت المستذلون للعبيد، يموت ذووا الاهتمامات الكبيرة، والأهداف العالية، ويموت التافهون الذين يعيشون فقط للمتاع الرخيص، الكل يموت.

فيا من لا تبالي بالموعظة، على أية حال تموت، وما أبقى الموت أميراً ولا وزيراً، يموت كل عزيز وحقير، يموت كل غني وفقير، يموت كل نبي وولي، يموت كل نجي وتقي، فالموت أكبر واعظ، ومن لم يتعظ بالموت ولا بالقرآن، فلو تناطحت الجبال بين يديه ما اتعظ، يا هذا رأيت الموتى على فراش الموت، وعاينت سكراته وغصصه وما اتعظت، خذ العظة والعبرة، قبل أن تكون عبرة وعظة.

ـ قال ابن مسعود رضي الله عنه : «السعيد من وعظ بغيره».

وهيا لترى أثر الموعظة بالمشهود على سيد الخلق ﷺ :

ـ عن البراء بن عازب رضي الله عنه قال: بينما نحن مع رسول الله ﷺ ، إذ بصر بجماعة، فقال: «علام اجتمع هؤلاء؟»، قيل: على قبر يحفرونه، قال: ففزع رسول الله ﷺ ، فبدى بين يدي أصحابه مسرعًا، حتى انتهى إلى القبر، فجثى عليه، قال: فاستقبلته من بين يديه لأنظر ما يصنع، فبكى حتى بل الثرى من دموعه، ثم أقبل علينا، فقال: «أي إخواني، لمثل هذا اليوم فأعدوا»[1].

واسمع إلى أثرها في الصالحين، وكيف أن قلوبهم تلين:

ـ روى أبي نعيم الحافظ بإسناد له، أن عمر بن عبد العزيز شيع مرة جنازة من أهله، ثم أقبل على أصحابه ووعظهم، وذكر الدنيا، فذمها، وذم أهلها، وتنعمهم فيها، وما صاروا إليه بعدها من القبور، وكان من كلامه أنه قال: «**إذا مررت بهم فنادهم، إن كنت مناديًا، وادعهم إن كنت لابد داعيًا، ومر بعسكرهم، وانظر إلى تقارب منازلهم، سل غنيهم ما بقي من غناه؟، وسل فقيرهم ما بقي من فقره؟ وسلهم عن الألسن التي كانوا بها يتكلمون، وعن الأعين التي كانوا إلى اللذات بها ينظرون، وسلهم عن الجلود الرقيقة، والوجوه الحسنة، والأجساد الناعمة، ما صنع بها الديدان تحت الأكفان؟، وأكلت اللحمان، وعفرت الوجوه، ومحيت المحاسن، وكسرت الفقار، وبانت الأعضاء، ومزقت الأشلاء، وأين حجابهم وقبابهم، وأين خدمهم وعبيدهم، وجمعهم وكنوزهم؟، والله ما زودوهم فراشًا ولا وضعوا لهم هناك متكئًا، ولا غرسوا لهم شجرًا، ولا أنزلوهم من اللحد قرارًا، أليسوا في منازل الخلوات؟، أليس الليل والنهار عنهم سواء؟ في مد لهمة ظلماء؟ قد حيل بينهم وبين العمل وفارقوا الأحبة؟، وكم ناعم وناعمة أضحوا ووجوههم بالية؟، وأجسادهم من أعناقها بائنة،**

---

(١) رواه أحمد وابن ماجه، وحسنه الألباني في «الصحيحة» رقم (١٧٥١).

وأوصالهم ممزقة؟، وقد سالت الحدقة على الوجنات وامتلأت الأفواه دمًا وصديدًا، ودبت دواب الأرض في أجسادهم، ففرقت أعضاءهم، ثم لم يلبثوا إلا يسيرا، حتى حادت العظام رميمًا، فقد فارقوا الحدائق وصاروا بعد السعة إلى المضايق، قد تزوجت نساؤهم، وترددت في الطرق أبناؤهم، وتوزعت القربات ديارهم، وثراهم، فمنهم والله الموسع له في قبره، والغض الناظر فيه، المتنعم بلذته، يا ساكن القبر غدا، ما الذي غرك من الدنيا؟، هل تعلم أنك تبقى لها وتبقى لك، أين دارك الفيحاء ونهرك المطرد؟، وأين ثمرتك اليانعة، أما والله قد نزل به الأمر، فما يدفع عن نفسه وجلاً، وهو يرشح عرقًا، ويتململ عطشًا، يتقلب في سكرات الموت وغمراته، جاء الأمر من السماء، وجاء القدر والقضاء هيهات هيهات، يا مغمض الوالد والأخ والولد وغاسله، ويا مكفن الميت وحامله، ويا مخليه في القبر وراجعًا عنه، ليت شعري كيف على خشونة الثرى، ليت شعري بأي خديك بدأ البلى، يا مجاور الهلكات، صرت في محلة الأموات، ليت شعري ما الذي يلقاني به الملك عند خروجي من الدنيا، وما يأتيني به من رسالة ربي»، ثم انصرف، فما عاش بعد ذلك إلا جمعة ـ رحمه الله تعالى ـ.

وانظر إلى أثر الموعظة بالمشهود أيضًا في مشهد نراه ونألفه، عندما نشيع جنازة، ترى الناس يهرولون من الشمس المحرقة، ومن الغبار، وهم مع ذلك الهروب ما زالوا على غيهم سادرين، وبغفلتهم راضين، ولكن عمر بن عبد العزيز لما شاهد هذا المشهد أخذ منه العظة والعبرة.

رُوي أنه كان في جنازة في مقبرة، فرأى قومًا يهربون من الشمس إلى الظل، فأنشد يقول بعد الصلاة على رسول الله ﷺ:

من كان حين تصيب الشمس جبهته ... أو الغبار يخاف لاشين والشعثا

ويألف الظل كي تبقى بشاشته ... فسوف يسكن يومًا راغمًا جدثًا

في ظل مكفرة غبراء مظلمة ... يطيل تحت الثرى في غمه اللبثا

تجهزي بجهاز تبلغين به ... يا نفس قبل الردى لم تخلقي عبثًا

- وعن ميمون بن مهران قال: خرجت مع عمر بن عبد العزيز إلى المقابر، فلما نظر إليها بكى، ثم أقبل على ميمون، فقال: «يا أبا أيوب هذه قبور آبائي، بني أمية، كأنهم لم يشاركوا أهل الدنيا في لذتهم وعيشهم أما تراهم صرعى قد خلت بهم المثلات، واستحكم فيهم البلاء وأصابت الهوام في أبدانهم مقيلاً، ثم بكى حتى غشي عليه، ثم أفاق، فقال: انطلق بنا، فوالله ما أعلم أحدًا أنعم ممن صار إلى هذه القبور، وقد أمن من عذاب الله - عَزَّ وَجَلَّ -.

وعن مطرف الهزلي، قال: كانت عجوز متعبدة في عبد القيس فعوتبت في كثرة إتيانها القبور، فقالت: **«إن القلب القاسي إذا جفى لم يلينه إلا رسوم البلى، وإني لآتي القبور، فكأني أنظر إليهم قد خرجوا من بين أطباقها، وكأني أنظر إلى تلك الوجوه المعفرة، وإلى تلك الأجسام البالية المتغيرة، وإلى تلك الأكفان الدنسة، فيا له من منظر؟!»**.

وقال صدقة أبو محمد الزاهد: خرجنا في جنازة بالكوفة، وخرج فيها داود الطائي، فانتبذ مقعدًا ناحية وهي تدفن، فجئنا قريبًا منه فتكلم، فقال: **«من خاف الوعيد قصر عليه البعيد، ومن طال أمله ضعف عمله، وكل ما هو آت قريب»**، واعلم أي أخي أن كل شيء يشغلك عن ربك، فهو عليك مشؤوم، واعلم أن أهل الدنيا جميعًا من أهل القبور، إنما يندمون على ما يخلفون، ويفرحون بما يقدمون مما عليه أهل القبور ندموا، أهل الدنيا عليه يقتتلون، وفيه ينافسون، وعليه عند القضاء يختصمون.

واعلم - علمني الله وإياك - أن من الموعظة بالمشهود ما بثه الله في هذا الكون من آيات وعبر، ترغيب العبد وترهبه، تحدوه وتسوقه، فكم يراه الغافل، ولكن لا يتحرك قلبه، ولا يخشع بدنه، وما جعلها إلا آية دالة على قوته وقدرته،

ورحمته وغضبه، ومن هـذه الآيات المشهودة التي جعلها الله تذكرة لذوي القلوب والألباب: النار، يقول ـ سبحانه وتعالى ـ: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ (٧١) أَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنشِئُونَ (٧٢) نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً وَمَتَاعًا لِّلْمُقْوِينَ﴾ (الواقعة: ٧١-٧٣).

قال مجـاهد وغيره، يعني: أن نار الدنيا تذكر بـنار الآخرة، فإذا رأى تلك النار، أعني: نار الدنيا، تذكر نار الآخرة، وأن نار الدنيا جزء من سبعين جزء من نار جهنم.

ـ عن أبي هريرة رضي الله عنه: عن النبي ﷺ قـال: «ناركم هذه التي يوقـد بنوا آدم، جزء من سـبعين جزءً من نار جـهنَّم»، قالوا: «والله إن كانت لكافية»، قال: «إنها فضلت عليها بتسعة وستين جزءً كلهن مثل حرها»[1]، وخرجه الإمام أحمد، وزاد فيه: «ضربت بالبحر مرتين، ولو ذلك ما جعل الله فيها منفعة».

* وهيا لترى أحـوال السلف عند مشاهدة نار الدنيا، وكيف كـان موعظة ما أبلغها:

ـ قال أبو حيـان التيمي: «سمعت منذ ثلاثين سنة أو أكثر من ثلاثين، أن عبد الله بن مسعود مرَّ على الذين ينفخون على الكير فسقط»[2].

ـ وأخرج ابن أبي الدنيا من رواية سـعد بن الأخرم، قال: «كنت أمشي مع ابن مسعود، فمرَّ بالحدادين، وقد أخرجوا حديداً من النار، فقام ينظر إليه ويبكي».

ـ وعن عطاء الخرسـاني قال: «كان أويس القـرني يقف على مـوضع الحدادين فينظر إليهم كيف ينفخون الكير، ويسمع صوت النار، فيصرخ ثم يسقط».

ـ وقال الأعمش: «اخبـرني من رأى الربيع بن خيثم مـرَّ بالحدادين، فنظر إلى الكير، وما فيه فخرَّ».

---

(١) أخرجه البخاري ومسلم.
(٢) أخرجه الإمام أحمد.

-وعن العلاء بن محمد قال: دخلت على عطاء السلمي، فرأيته مغشيًا عليه، فقلت لامرأته: «ما شأنه؟»، قالت: «سجرت جارة لنا التنور، فلما نظر إليه غُشي عليه».

-وكان الأحنف بن قيس يجيء إلى المصباح بالليل، فيضع أصبعه فيه، ثم يقول: «**حس حس**»، ثم يقول: «**يا أحنف ما حملك على ما صنعت يوم كذا؟**».

-وقال البختري بن حارثة، دخلت على عابد، فإذا بين يديه نار قد أججها وهو يُعاتب نفسه، ولم يزل يعاتبها حتى مات.

-وكان كثيرٌ من الصالحين يذكر النار، وأنواع عذابها، برؤية ما يشبهه بها في الدنيا، أو يذكره بها كرؤية البحر وأمواجه، والرؤوس المشوية، وبكاء الأطفال، وفي الحر والبرد، وعند الطعام والشراب، وغير ذلك، بل إن الواحد منهم إذا أصابه البرد، تذكر زمهرير جهنم، ويقف متأملاً باكيًا خائفًا من عذاب الله.

ورُوي عن زبيد اليامي أنه قام ليلة للتهجد فعمد إلى مطهرة قد كان يتوضأ فيها، فغسل يده، ثم أدخلها في المطهرة، فوجد الماء الذي فيها باردًا بردًا شديدًا، قد كاد أن يجمد، فذكر الزمهرير ويده في المطهرة، فلم يخرج يده من المطهرة حتى أصبح، فجاءته الجارية وهو على تلك الحال، فقالت: ما شأنك يا سيدي لم تصلِّ الليلة كما كنت تصلي؟، قال: «**ويحك إني أدخلت يدي في هذه المطهرة، فاشتد عليَّ برد الماء، فذكرت به الزمهرير، فوالله ما شعرت بشدة برده، حتى وقفت عليَّ، انظري لا تخبري بهذا أحداً ما دمت حيًا**»، فما علم بذلك أحد حتى مات ـ رحمه الله ـ[1].

---

(١) «التخويف من النار» (١٠١).

واعلم ـ علمني الله وإياك ـ أن من الموعظة بالمشهود حلول فصل الصيف بما فيه من حر وعـرق وحمى، فكلها تعظ العـبد وتذكره بآخـرته، وهيا لنقف مع ابن رجب ـ رحمه الله ـ، يقـول في ذكر فصل الصيف: أخرجا في الصـحيحين من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: **«اشتكت النار إلى ربها، فقالت: يا ربي أكل بعضي بعضاً، فأذن لها بنفسين، نفس في الشتاء، ونفس في الصيف، فأشد ما تجدون من الحر من سموم جهنم، وأشد ما تجدون من البرد من زمهرير جنهم»**

لاشك أن الله تعالى خلق لعباده دارين يجزيهم فيـهما بأعمالهم مع البقاء في الدارين من غيـر موت، وخلق دارًا معجلـة للأعمال وجعل فـيها موتًا وحـياة، وابتلى عباده فيها بما أمرهم به، ونهاهم عنه، وكلفهم فيها الإيمان بالغيب، ومنه: الإيمان بالجـزاء والدارين المخلوقتين له، وأنـزل بذلك الكتب، وأرسل به الرسل، وأقام الأدلة الواضحـة على الغيب الذي أمر بالإيمان به، وأقام عـلامات وأمارات تدل على وجـود داري الجزاء، فـإن إحدى الدارين المخلوقـتين للجزاء دار نعـيم محض، لا يشوبه ألم، والأخرى دار عذاب محض، لا يشوبه راحة، وهذه الدار الفانية ممزوجة بالنعيم والآلام، فما فيها من النعيم يذكر بنعيم الجنة، وما فيها من الألم يذكـر بألم النار، وجعل الله تعـالى في هذه الدار أشيـاء تذكر بدار الغـيب المؤجلة الباقيـة، فمنها: ما يذكر بالجنة من زمان ومكان، أمـا الأماكن فخلق الله تعالى بعض البلدان كالشام وغيرها، فـيها من المطاعم والمشارب والملابس، وغير ذلك من نعيم الدنيا، ما يذكر بنعيم الجنة، وأما الأزمان فكزمن الربيع، فإنه يذكر طيبه بنعيم الجنة وطيبها، وكأوقات السحر، فإن بردها يذكر ببرد الجنة.

وفي الحديث الذي أخرجه الطبراني: **«إن الجنة تفتح في كل ليلة في السحر، فـينظر الله إليـها، فـيقـول لهـا: ازدادي طيبًـا لأهلك، فذلك برد السحـر الذي يجـده**

الناس»، وروى سعيد الجريري عن سعيد بن أبي الحسن، أن داود عليه السلام قال: «**يا جبريل، أي الليل أفضل؟**»، قال: «**ما أدري غير أن العرش يهتز إذا كان من السحر، ألا ترى أنه يفوح ريح كل الشجر؟!**».

ومنها: ما يذكر بالنار، فإن الله تعالى جعل في الدنيا أشياء كثيرة، تذكر بالنار المعدة لمن عصاه، وبما فيها من الآلام والعقوبات من أماكن وأزمان وأجسام، وغير ذلك، أما الأماكن فكثير من البلدان مفرطة الحر أو البرد، فبردها يذكر بزمهرير جهنم، وحرها يذكر بحر جهنم، وسمومها وبعض البقاع يذكر بالنار كالحمام، قال أبو هريرة: نعم البيت الحمام، يدخله المؤمن فيحدث ذلك له. ودخل ابن وهب الحمام، فسمع تاليًا يتلو: ﴿**وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِي النَّارِ**﴾ (غافر: ٤٧)، فغشي عليه، وتزوج صلة بن أشيم، فدخل الحمام، ثم دخل على زوجته تلك الليلة، فقام يصلي حتى أصبح، وقال: «**دخلت بالأمس بيتًا أذكرني النار، ودخلت الليلة بيتًا ذكرت به الجنة، فلم يزل فكري فيهما حتى أصبحت**».

وكان بعض السلف إذا أصابه كرب الحمام، يقول: «**يا بر. يا رحيم مُنَّ علينا وقنا السموم**»، صَبَّ بعض الصالحين على رأسه ماء من الحمام، فوجده شديد الحر، فبكى، وقال: «**ذكرت قوله تعالى:** ﴿**يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ**﴾ (الحج: ١٩)».

كل ما في الدنيا يدل على صانعه، ويذكر به ويدل على صفاته، فما فيها من نعيم وراحة يدل على كرم خالقه وفضله وإحسانه وجوده ولطفه، وما فيها من نقمة وشدة وعذاب يدل على شدة بأسه وبطشه وقهره وانتقامه، واختلاف أحوال الدنيا من حر وبرد وليل ونهار، وغير ذلك يدل على انقضائها وزوالها، قال الحسن: كانوا - يعني: الصحابة - يقولون: «**الحمد لله الرفيق الذي لو جعل هذا الخلق خلقًا دائمًا لا يتصرف لقال الشاك في الله: لو كان لهذا الخلق رب لحادثة، وإن الله قد حادث بما ترون من الآيات**».

وأما الزمان .. فشدة الحر والبرد يذكر بما في جهنم من الحر والزمهرير، وقد دل هذا الحديث الصحيح على أن ذلك من تنفس النار في ذلك الوقت، قال الحسن: كل برد أهلك شيئًا فهو من نفس جهنم، وكل حر أهلك شيئًا فهو من نفس جهنم.

وفي الحديث أيضًا عن النبي ﷺ قال: **«إذا اشتد الحر فأبردوا بالصلاة، فإن شدة الحر من فيح جهنم»**[1].

وفي حديث مرفوع أخرجه عثمان الدارمي وغيره: **«إذا كان يوم شديد الحر، فقال العبد: لا إله إلا الله، ما أشدَّ حر هذا اليوم، اللهم أجرني من حر جهنم، قال الله لجهنم: إن عبداً من عبادي قد استجار بي منك، وقد أجرته: وإذا كان يوماً شديد البرد، فقال العبد: لا إله إلا الله، ما اشد برد هذا اليوم، اللهم أجرني من زمهرير جهنم، قال الله لجهنم: إن عبداً من عبادي قد استجار بي من زمهريرك، وإني اشهدك اني قد اجرته»**، قالوا: **«وما زمهرير جهنم؟»**، قال: **«بيت يلقى فيه الكافر، فيتميز من شدة برده»**.

أبواب النار مغلقة وتفتح أحيانًا، فتفتح أبوابها كلها عند الظهيرة، فذلك يشتد الحر حينئذٍ فيكون في ذلك تذكرة بنار جهنم، وأما الأفعال المشاهدة في الدنيا المذكرة بالنار فكثيرة[2].

فيا من لا تبالي بالموعظة، وتهرب من الحر إلى المكيفات والمبردات هذا نفس جهنم، فما بالك بنارها التي أوقد الله عليها ألف عام حتى ابيضت، ثم أوقد عليها ألف عام حتى احمرت، ثم أوقد عليها ألف عام حتى اسودت، فهي الآن سوداء مظلمة، لا يضيء شررها ولا يطفئ لهيبها، يا ابن آدم ما أضعفك، فلماذا التجبر والتكبر، غمسة في النار تنسيك كل نعيم في الدنيا، فتقول: **«ما مر بي نعيم قط»**!

---

(١) أخرجه البخاري رقم (٥٣٦، ٥٣٧)، ومسلم، والبغوي رقم (٣٦٢).

(٢) «لطائف المعارف» (ص٥٢٣-٥٢٦).

وأخيرًا ـ أخي المسلم .. أختي المسلمة ـ أسوق إليكم دواءً نافعًا لتلك القلوب التي تحجرت ساقه إليكم الإمام القرطبي في كتابه التذكرة، يقول ـ رحمه الله ـ: «**فصل**».

قال العلماء ـ رحمة الله عليهم ـ: ليس للقلوب أنفع من زيارة القبور، وخاصة إن كانت قاسية، فعلى أصحابها أن يعالجوها بأربعة أمور:

أحدها ـ الإقلاع عما هي عليه:

بحضور مجالس العلم بالوعظ والتذكر والتخويف والترغيب، وأخبار الصالحين، فإن ذلك مما يلين القلوب وينجع فيها.

الثاني ـ ذكر الموت:

فيكثر من ذكر هادم اللذات، ومفرق الجماعات، وميتِّم البنين والبنات، كما تقدم في الباب قبل. يروى أن امرأة اشتكت إلى عائشة رضي الله عنها قساوة قلبها، فقالت لها: «**أكثري من ذكر الموت يرق قلبك**»، ففعلت ذلك، فرق قلبها، فجاءت تشكر عائشة رضي الله عنها. قال العلماء: تذكر الموت يردع عن المعاصي ويلين القلب القاسي، ويذهب الفرح بالدنيا، ويهون المصائب فيها.

الثالث ـ مشاهدة المحتضرين:

فإن في النظر إلى الميت ومشاهدة سكراته ونزعاته، وتأمل صورته بعد مماته، ما يقطع عن النفوس لذاتها، ويطرد على القلوب مسراتها، ويمنع الأجفان من النوم، والأبدان من الراحة، ويبعث على العمل، ويزيد في الاجتهاد والتعب.

ـ يروى أنَّ الحسن البصري: دخل على مريض يعوده، فوجده في سكرات الموت، فنظر إلى كربه وشدة ما نزل به، فرجع إلى أهله بغير اللون الذي خرج به من عندهم، فقالوا له: الطعام يرحمك الله، فقال: «**يا أهلاه عليكم بطعامكم وشرابكم، فوالله لقد رأيت مصرعًا لا أزال أعمل له حتى ألقاه**».

فهذه ثلاثة أمور ينبغي لمن قسا قلبه، ولزمه ذنبه أن يستعين بها على دواء دائه، ويستصرخ بها على فبن الشيطان وإغوائه، فإن انتفع فذاك، وإن عظم عليه ران القلب، واستحكمت فيه دواعي الذنب، فزيارة قبور الموتى تبلغ في دفع ذلك مالاً يبلغه الأول والثاني والثالث، ولذلك قال ﷺ: «**زوروا القبور فإنها تذكر الموت والآخرة، وتزهد في الدنيا**».

فالأول .. سماع بالآذان، والثاني إخبار للقلب بما إليه المصير، وقائم له مقام التخويف والتحذير في مشاهدة من احتضر، وزيارة قبر من مات من المسلمين معاينة، فلذلك كان أبلغ من الأول والثاني، قال ﷺ: «**ليس الخبر كالمعاينة**»[1].

إلا أن الاعتبار بحال المحتضرين غير ممكن في كل الأوقات، وقد لا يتفق لمن أراد علاج قلبه في ساعة من الساعات، وأما زيارة القبور، فوجدوها أسرع، والانتفاع بها أليق وأجدر، فينبغي لمن عزم على الزيارة أن يتأدب بآدابها، ويحضر قلبه في إتيانها، ولا يكون حظهه منها الطواف حظه منها الطواف على الأجداث فقط، فإن هذه حالة تشاركه فيها بهيمة ونعوذ بالله من ذلك، بل يقصد بالزيارة وجه الله تعالى، وإصلاح فساد قلبه، أو نفع الميت مما يتلوه عنده من القرآن على ما يأتي بيانه ـ إن شاء الله تعالى ـ، ويجتنب المشي على المقابر، والجلوس عليها إذا دخل المقابر، ويخلع نعليه كما جاء في أحاديث، ويسلم إذا دخل المقابر، ويخاطبهم خطاب الحاضرين، فيقول: «**السلام عليكم دار قوم مؤمنين**»، كذلك كان عليه الصلاة والسلام يقول: وكنّي بالدار عن عمارها وسكانها، ولذلك خاطبهم بالكاف والميم، لأن العرب تعبر بالمنزل عن أهله، وإذا وصل إلي قبر ميته الذي يعرفه سلم عليه أيضًا، فيقول: «**السلام عليك**».

---

(١) رواه ابن عباس، ولم يروه أحد غيره، رواه أحمد (١/ ٢١٥، ٢٧١)، وابن عدي (٧/ ١٣٦)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» رقم (٥٣٧٣، ٥٣٧٤).

ـ روى الترمذي في جامعه: أن رجلاً دخل على النبي ﷺ، فقال: «عليك السلام»، فقال ﷺ: «لا تقل: عليك السلام، فإن عليك السلام تحية الميت»، وليأته من تلقاء وجهه في زيارته كمخاطبته حيًا، ولو خاطبه حيًا لكان الأدب استقباله بوجهه، فكذا ههنا، ثم يعتبر بمن صار تحت التراب، وانقطع عن الأهل والأحباب، بعد أن قاد الجيوش والعساكر، ونافس الأصحاب، والعشائر، وجمع الأموال، كيف انقطعت آمالهم، ولم تغن عنهم أموالهم، ومحا التراب محاسن وجوهه، وافترقت في القبور أجزاؤهم، وترمل بعدهم نساؤهم، وشمل ذل اليتم أولادهم، واقتسم غيرهم طريقهم وبلادهم.

وليتذكر ترددهم في المآرب، وحرصهم على نيل المطلب، وانخداعهم لمؤتاة الأسباب، وركونهم إلى الصحة والشباب، وليعلم أن ميله إلى اللهو واللعب كميلهم وغفلتهم، وأنه لابد صائر إلى مصيرهم، وليحضر بقلبه ذكر من كان متردداً في أغراضه، وكيف تهدمت رجلاه، وكان يتلذذ بالنظر إلى ما حوله، وقد سالت عيناه، ويصول ببلاغة نطقه، وأكل الدود لسانه، ويضحك لمؤاتاة دهره، وقد أبلى التراب أسنانه، وليتحقق أن حاله كحاله، ومآله كمآله، وعند هذا التذكر والاعتبار يزول عنه جميع الأغيار الدنيوية، ويقبل على الأعمال الأخروية، فيزهد في دنياه، ويقبل على طاعة مولاه، ويلين قلبه، وتخشع جوارحه ـ والله أعلم ـ[1].

(١) «التذكرة» (ص١٣-١٥).